نفسية الاديب من أدبه 2

المحاضرة الثانية عشرة

مقدمة:

لا شك أنّ النص الأدبي لا يُولد في فراغ، بل يأتي ليعبّر عن تجربة شعورية ووجدانية عميقة، تجعل من الكتابة متنفسًا نفسيًا يكشف خبايا الذات ويعبّر عن صراعاتها وآمالها المستقبلية. ويرى فرويد أنّ العمل الأدبي ليس إلا تعبيرًا غير مباشر عن مكبوتات الأديب أو صراعاته الداخلية التي يعجز عن التصريح بها في الواقع. لذلك تظهر نفسية الأديب من خلال اختياره للموضوعات التي يميل إلى كتابتها، كما تتجلّى أيضًا في لغته وأسلوبه، وفي الرموز والصور التي تعكس ملامح عالمه الداخلي.

2-العقاد وتحليل نفسية الشاعر:

لقد أشار كارل "غوستاف يونغ" في مقام آخر أنّ الأديب لا يعبّر عن ذاته الفردية فحسب، بل يستحضر أيضًا رموزا وصورا كامنة في اللاوعي الجمعي، مما يجعل النص يتجاوز التجربة الشخصية إلى أفق إنساني أوسع.ومن الأمثلة الدالة على ارتباط الأدب بنفسية صاحبه ما تناوله العقاد في دراساته لشخصيات الشعراء والأدباء، حيث سعى إلى الكشف عن السمات النفسية التي انعكست في إنتاجهم الأدبي وهذا من خلال المقومات الآتية:

ـــ رسم الصورة النفسية والجسدية.

ـــ استنباط مفتاح الشخصية.

ـــ أما الدراسة نفسها ،فتعتمد على منحنيين اثنين؛ أولهما :المنحى النفسي الفني أو السيكوفني ،ثانيهما المنحى النفسي الجسمي أو السيكوسوماتي."

1- دراسة نفسية ابن الرومي:

اهتمّ عباس محمود العقاد بتحليل الشخصيات الشعرية من منظور نفسي، وكان للشاعر ابن الرومي نصيب في هذه الدراسات. حيث ركّز العقاد على كشف البنية النفسية للشاعر من خلال أعماله الشعرية، معتبرا أن الشعر ليس مجرد فن لغوي أو جمالي، بل مرآة صادقة للنفس الإنسانية بكل تعقيداتها وصراعاتها. وأول ما بدا به هو التركيز على الملامح الجسمانية الخارجية إذ يرى أنّ كل ما نعلمه عن ابن الرومي هو"نحافته وتقزز حسه وشيخوخته الباكرة ،وتغيّر منظره واسترساله في الهجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزفته وشهوانيته الظاهرة في تشبيبه وهجائه ،واسرافه في أهوائه ولذاته ،ثم كل ما

تطالعه في ثنايا سطوره من البدوات والهواجس ،قرائن لا تخطئ في الدلالة على نوع الاختلال والشذوذ". يُفهم من هذا أنّ هذه المظاهر لا توصف بوصفها صفاتٍ متفرقة أو حوادث عرضية، بل تُقرأ ضمن نسق واحد يكشف عن شخصية قلقة شديدة الحساسية، تضخّم فيها الشعور بالألم والحرمان، وهذا ينعكس ذلك في سلوكه الاجتماعي وفي نبرة شعره.

كما يبين سيد قطب في كتابه النقد الأدبي أصوله و مناهجه العلاقة بين المنهج الفني والنفسي" وإذا استطاع "المنهج الفني" أن يفسر لنا " القيم الفنية" شعورية و تعبيرية الكامنة في العمل الفني ، بحيث نملك الحكم الفني على العمل الأدبي و بحيث نستطيع تصور و تصوير الخصائص الشعورية و التعبيرية لصاحبه ، فإن قسطا من هذا التصوير وذلك التفسير تتدخل فيه "الملاحظة النفسية" وهي أشمل من علم النفس كثيرا. فالخصائص الشعورية مسألة نفسية بالمعنى الشامل ، وملاحظتها و تطورها مسألة نفسية كذلك." فالعقاد جسد الصورة الجسدية و" اعتمد في تجسيدها على الوصف الخارجي للبنية الجسدية ، وكل ما يتصل بهذه البنية من علامات مميزة . وهذه العناية يوصف الملامح النفسية الجسدية يجسد ما يسمى في علم النفس بالتشخيص النفسي (psychodingnos) القائم على دراسة الشخصية بواسطة الظواهر الخارجية."

ولم يتوقف العقاد عند ملامحه الجسمانية، بل تجاوزها إلى تحليل عبقريته وحدة ذكائه، معيدا ذلك إلى استعداد فطري ذي جذور وراثية أسهمت في تشكيل بنيته النفسية والعقلية. يقول في هذا الصدد "إنه عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ،إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومي هي أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة في كلمة واحدة : فإنه كان محبا للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة ،كالحب الذي عهدناه في جملة الفنون اليونانية ،وكان مشخصا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخّصها أساطير اليونان... وكان مأخوذا بالجمال في كل شيء مستغرقا في الحس الدنيوي ، كما استغرقوا فيه. "نخلص من هذا القول أن العقاد حين وصفه بهذه العبقرية اليونانية الفذة، إنما يريد من ورائها إظهار ابن الرومي في نزوعه إلى الحياة وإلى الجمال المحسوس، وإلى التأمل الدقيق في الظواهر، وهي خصائص جعلت شعره قائما على الرؤية والتجسيد والتصوير، لا على التجريد الذهني وحده، وعلية فإن شخصية ابن الرومي امتزجت بين تصوير الواقع وبالخيال الخلّاق الذي يحدث وحدة فنية متفردة. ومن أمثلة ذلك قوله:

لعمرك ما الحياة لكل حي اذا فقد الشباب سوى عذاب

فقل لبنات دهري فلتصبني اذا ولى بأسهمها الصياب

يستروح من محاسنها نفسا تتصبى الناظر اليها وتتبرج له تبرج الانثى تصدت للذكر ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة، تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة.

فانظر الى لون الوجه-الأحمر- القاشر والى نذير السوء والبلاء اين يجمع بينهما من الصلة والمناسبة ؟لا صلة ولا مناسبة، ولكن ضع بينهما المريخ ولونه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما في الاساطير من خصائص الحرب والفتنة ، تنتظم العلاقة وتنتقد المناسبة من جميع أطرافها، وقل مثل ذلك في لو ولون السيف الغاضب (...) واجمعه كما جمعه ابن الرومي فاذا هو اقرب المناسبات والزم العلاقات".

وخلاصة القول إن نفسية الأديب تُعدّ عنصرا فاعلا في تشكيل العمل الأدبي، إذ تتسرّب إلى النص عبر الموضوعات والرموز والأسلوب. غير أن الأدب يظلّ بناءً فنيًا مستقلًا، لا يُختزل في سيرة صاحبه، بل يظل فضاءً إبداعيًا تتفاعل فيه الذات الفردية مع التجربة الإنسانية الشاملة، فيتحول الألم الشخصي إلى معنى كوني، وتغدو التجربة الخاصة رسالة إنسانية عامة.